

العنوان:	التصوف بين البروسوبوغرافيا وأدب المناقب
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة سيدي محمد بن عبد الله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	لغزاوي، لمياء
مؤلفين آخرين:	بنمليح، عبد الإله (مراجع)
المجلد/العدد:	ع 19
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
الصفحات:	99 - 111
رقم MD:	512931
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	التصوف، التراجم، المناقب، فاس، المغرب
رابط:	<a href="https://search.mandumah.com/Record/512931">https://search.mandumah.com/Record/512931</a>

## التصوف بين البروسوبوغرافيا وأدب المناقب

ذة. لمياء لغزلوي

مراجعة د. عبد الإله بنمليم

يحظى التصوف وتمظهراته بالمجتمعات العربية الإسلامية باهتمام كبير في وقتنا الراهن، غير أن منطلقات البحث في هذا الموضوع اختلفت باختلاف المرجعيات الفكرية والحمولات الإيديولوجية من باحث إلى آخر وصفا وتحليلا وتأويلا ووفق الزمان والمكان. وتقترح هذه المساهمة<sup>(1)</sup> إثارة موضوع دراسة المتصوفة، باعتبارهم فئة تنتمي إلى النخب الدينية في مجتمع الغرب الإسلامي، انطلاقا من هاجس منهجي أولا، وهم مرجعي مصدري ثانيا، رافقنا خلال تجربتنا الأكاديمية، بحثا وتحصيلا في موضوع الولاية والصلاح بمدينة فاس خلال العصر الوسيط، إذ نما لدينا وعي عميق بأن دراسة موضوع النخب الصوفية لا يمكن أن يتم بمعزل عن تصفح مستندات مصدريّة هامة جدا تتمثل في أدب المناقب الذي ظل لوقت طويل طي النسيان، ولم ينل بعد حقه في الإفصاح عن قيمته التاريخية.

تعد فكرة توظيف المقاربة البروسوبوغرافية في دراسة الأدب المنقبي<sup>(2)</sup> أداة عملية لتتبع مسار حياة العباد والزهاد في أدق تفاصيلها. لكن وأمام ندرة الإنتاجات الفكرية<sup>(3)</sup>،

(1) \_

2009-2008 :  
(2) – Pellat. (CH), « Manakib, in Encyclopédie de l'islam, Tome VI, MAHK-MID, sous le patronage de l'union Académique internationale, Ed, Brill Lean, Pays Bas, 1991, pp, 333-341.

(3) \_

15 5 (4) 25-2 (1997) . 1998 7-17 :  
:

المرتبطة بموضوع البحث البروسوبوغرافي عبر التاريخ الإسلامي عامة والمغربي خاصة، ارتأينا عرض تجربتنا المتواضعة الهادفة إلى بلوغ كنه المقاربة البروسوبوغرافية وتبيان دورها في إعادة الاعتبار للأدب المناقبي. فما مفهوم البروسوبوغرافيا وتطوراتها التاريخية، وما علاقتها بعلوم أخرى في مقدمتها علم البيوغرافيا؟ وما هي خصوصيات المقاربة البروسوبوغرافية؟ وما هي مرتكزات العمل بها؟ وما هي فاعلية البروسوبوغرافيا في إعادة الاعتبار التاريخي للأدب المناقبي؟ وما هي حدودها وآفاقها؟ وبأي صيغة يمكن الرهان عليها لمعالجة ظاهرة الصلاح والولاية؟

تتناول معالجتنا للموضوع العناصر التالية: أولاً، تحديد مفهوم المقاربة البروسوبوغرافية، ثم ثانياً، المقاربة البروسوبوغرافية في خدمة الأدب المناقبي: النخب الصوفية مطلب تاريخي.

#### أولاً: مفهوم المقاربة البروسوبوغرافية

أقر الباحث المغربي محمد المبكر<sup>(4)</sup>، بصعوبة رصد مفهوم البروسوبوغرافيا، وذلك لاتسام المفهوم في حد ذاته بطابع الغموض، بفعل تعدد دلالاته من تخصص إلى آخر، تبعاً للتقاليد الوطنية لكل دولة، وأيضاً وفقاً لتعدد المنطلقات الفكرية للباحثين. فمن حيث الاشتقاق اللغوي العتيق للمصطلح تعد البروسوبوغرافيا علم وصف قسّمات الوجه<sup>(5)</sup>، مع الوعي التام بأن أولى بؤادر البحث بواسطة المقاربة البروسوبوغرافية ارتبطت بالتاريخ القديم الذي اقترنت فيه البروسوبوغرافيا بوصف صور الأجداد<sup>(6)</sup>،

- Mohammed MEOUAK, saqâliba, eunuques et esclaves à la conquête du pouvoir : géographie et histoire des élites politiques « marginales dans l’Espagne umayyade » ed, gummeruskirjapainooy, saariJärvi, 2004.

- ..... «micro-prosopographie et biographie arabes : histoire gentilice des fonctionnaire hispano-umayyades l’exemple des Banu Badr Ibn Ahmad », conceptionvazquez de Benito Miguelangel, manzano Rodriguez actas XVI, congreso U.E.A.T, Ed, graficas, salamanca, 1995.

= ..... , pouvoir souverain, administration centrale et élites politiques dans l’Espagne umayyade (II-IV-Xe siècles), suomalaisentiedeakatemintoimituksiaannelesacademiescientiarumfennice, Soriya-ser. Humanioranide- tom – 297, urintedoygummaruskirjamainoay, Saarijânu, 1999.

8. - (4)

(5) – Du grec ancien πρὸς ὄπον (*prosôpon*, « personne ») et γραφειν (*graphein*, « écriture »). Jean BAPTISTE CASARD et J. B MORIN, dictionnaire étymologique des mots français dérivés du grec, seconde édition, Tome 1, l’imprimerie impériale, Paris, p 415.

9. - (6)

ومنذ القرن 16 انتقلت اهتمامات البروسوبوغرافيا من رصد مشاهير الرجال، إلى تشكيل معاجم بيوغرافية تعرف بـ "who's who"<sup>(7)</sup>، وصولاً إلى القرن 19، حيث صارت البروسوبوغرافيا وسيلة لتدوين بعض مراحل التاريخ الروماني، إذ تجمع معظم الأدبيات الأكاديمية على أن تاريخانية البحث البروسوبوغرافي عموماً ارتبطت بالتاريخ الروماني القديم<sup>(8)</sup>.

زمنياً استطاعت البروسوبوغرافيا أن تشكل علماً مستقلاً بذاته، بعدما كان في السابق علماً يرتبط بالأنساب والأعلام والديموغرافيا والبيوغرافيا... إلخ، و يرجع تداول مصطلح البروسوبوغرافيا إلى القرن 16 وبالضبط إلى سنة 1577<sup>(9)</sup>، للدلالة على وصف الأشخاص، ودراسة حياتهم ووظيفتهم خصوصاً من الناحية الإدارية والعسكرية والسياسية، لتنتقل بعد ذلك البروسوبوغرافيا من علم إلى مقارنة تهتم بوصف التاريخ

(7) \_ 10.

(8) \_

:

:

- Claude NiCOLEt, « Prosopographie et histoire sociale : Rome et l'Italie », année les histoire, sciences sociales. N° 5, volume 25. Année 1970, pp 1209-1228.
- André CHASTAGNOLE, « la prosopographie, méthode de recherche sur l'histoire du bas empire », Ibid, pp 1229-1235.

:

- Martin HEINZELMANN, « prosopographie et recherche de continuité historique : l'exemple des Ve VIIe siècles », mélange de l'école française de Rome N° 1, volume 100, année 1988, pp 227-239.

:

- Pierre-Marie CHEVEREAU, Prosopographie des cadres militaires égyptiens de la basse époque, carrières militaires et carrières sacerdotales en Egypte du XIe au IIe siècle avant J.C, ed Cybèle, 1985.

\*

- Natalie PETITEAU, « prosopographie et noblesse impériale : de l'histoire d'une élite à l'histoire sociale ». Histoire économie et société, N° 17-2- volume 17, Année 1998, pp 277-285.=

- = - Jean-Marie MAYEUR, « une enquête sur le personnel parlementaire sous le troisième république », mélanges de l'école française de Rome. Moyen âge, temps modernes, n° 1, T 100, 1988, pp 175-179.

(9) - J. ANDREAU, « Prosopographie », in Dictionnaire des sciences historique, A. Burguire, P.U.F, 1986, p 547(546-548).

الاجتماعي شريطة إخضاع تلك التفسيرات التاريخية إلى مرجعيات مصدرية<sup>(10)</sup>، وأيضا من خلال تشكيل سلسلة من الأشخاص الذين لديهم خصائص مشتركة وصياغة مؤشرات للبحث وفقا للسلاسل الإحصائية التي تحيل إلى قضايا متعددة، سواء من أجل الحصول على معلومات محددة عن الأفراد أو تحديد الثوابت والمتغيرات على مستوى البيانات المتراكمة كما وكيفا<sup>(11)</sup>.

يقوم منهج البروسوبوغرافيا على تتبع السير الذاتية للأفراد عبر رصد عناصر الائتلاف والاختلاف، على مستوى نمط حياة هؤلاء الأفراد المنتمين إلى فئة اجتماعية معينة بغض النظر عن وضعيتهم السوسيو-اقتصادية داخل المجتمع، سواء أكانت تحظى بالقبول والاحترام داخله، أو تعاني من ظاهرة التهميش ضمنه، الشيء الذي يجعل من المقاربة البروسوبوغرافية حسب الباحث محمد موق، عبارة عن خليط بيوغرافي (multibiographie)<sup>(12)</sup>، تهدف إلى رصد خصوصيات الائتلاف والاختلاف بين عناصر المجموعة الواحدة. فأية علاقة بين البيوغرافيا والبروسوبوغرافيا؟

يقصد بالبيوغرافيا سرد حياة الفرد منذ ميلاده إلى إقباره، ومن ميزاتها اختلافها من فرد لآخر، مع احتفاظها بالخصوصيات العامة والمشاركة على المستوى الجماعي<sup>(13)</sup>، على اعتبار أن مجموع التجارب الفردية ذات أهمية قصوى في دراسة التاريخ الجماعي<sup>(14)</sup>. تجاذب البروسوبوغرافيا بين بعدي الجماعة والفرد، يدفعنا إلى التساؤل بصيغة توفيقية: متى يصبح للفرد وزن ضمن الجماعة المدروسة؟ هل حينما يشكل الاستثناء، ويخالف ما هو سائد من سلوكات داخل المجتمع؟ أم حينما ترتفع أعداد السلسلة الجماعية ويستطيع الفرد التوافق بشكل كبير مع الجماعة؟

تري الباحثة كيتس روهان (Keats - Rohan)<sup>(15)</sup>، أنه رغم تجاذب علم البروسوبوغرافيا عادة لدى بعض الباحثين بين المنظور الجماعي أو الفردي، فإنه يظل

(10) - Claire LEMERCIER et Emmanuelle PICARD, «Quelle approche prosopographique ? », ouvrage collectif issu de deux colloques Biographie et prosopographie, dirigé par Philippe Nabonnand et Laurent Rollet, Nancy, Presses universitaires de Nancy, 2-3 May, 2011, p 1.

[http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/52/15/12/PDF/Prosopo\\_Lemerrier\\_Picard.pdf](http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/52/15/12/PDF/Prosopo_Lemerrier_Picard.pdf)

(11) - Ibid.p.2.

(12) - Ibid. pp.4-3.

(13) - Ibid. p.6.

"

"

\_(14)

(15) -Katharine KEATS-ROHAN, "progress or perversion? Current Issues in Prosopography: An Introduction", 2003 <http://users.ox.ac.uk/~prosop/progress-or-perversion.pdf>

سيرة ذاتية جماعية لفئة معينة داخل المجتمع، حيث تشكل سلسلة المعارف الخبرية ذات الصبغة الفردية مادة موحدة وذات معنى إذا ما تم تأطيرها ضمن حضور جماعي يخضع الكل فيه إلى الفحص، بناء على شبكة من المعطيات. وتصبح البروسوبوغرافيا تبعا لذلك أداة من أدوات التاريخ الاجتماعي، من غاياتها الرئيسية إبراز الخصائص المميزة للفئة الاجتماعية، للوقوف على ديناميتها الداخلية وممارساتها الجماعية، في إطار علاقتها مع محيطها الاجتماعي<sup>(16)</sup>.

إن البروسوبوغرافيا علم يركز على دراسة البيوغرافية الجماعية من منظور "socioprofessionel"<sup>(17)</sup>، كما يرى الباحث كوغانبررو Berrero Carolin، أي من منظور يسعى إلى جعل علم البروسوبوغرافيا علما يتيح الوعي بكيفية تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع<sup>(18)</sup>، وبأية صيغة تتشكل وتتفاعل أدوار تلك العلاقات ثم تتطور ضمن نسق جماعي يهدف إلى إيلاء أهمية كبرى لعناصر الائتلاف أكثر من عناصر الاختلاف.

يتمحور إذن مفهوم البروسوبوغرافيا حول ثلاثة مرتكزات أساسية:

- المرتكز الأول: تعيين الفئة المدروسة، أي العينات موضوع البحث من قبيل: فقهاء، علماء، صوفية، حرفيين، ولادة، أئمة، تجار، عبيد... إلخ.
- المرتكز الثاني: رصد أوصاف العينة المدروسة وتحديد المعيار الذي تم بموجبه اعتبار الفرد عنصرا ينتمي إليها.
- المرتكز الثالث: رهين بطبيعة الأدوار والمهام التي تمارسها الجماعة سواء كانت في وضعية فاعلة أو منفعة داخل المجتمع خلال فترة زمنية معينة ومكان محدد.

بناء على المرتكزات الثلاثة السابقة، يتم البحث عن التداخلات والتفاعلات القائمة بين المؤشرات المنفردة، وبواسطة هذه الخطوة يقف الباحث على الفائدة العظمى من المقاربة البروسوبوغرافية التي ترقى بالمعلومات المنفردة غير ذات منفعة للوهلة الأولى إلى قيمة نوعية بل وحاسمة في إثبات أو نفي سلوك، أو ممارسة ترتبط بالفئة الجماعية المدروسة. فترتقي المؤشرات المنفردة والمتناثرة إلى مستوى تشكيل تيمات معينة تتفاعل فيما بينها ضمن قضايا كبرى تعد أساس البحث الأكاديمي في موضوع ما.

(16) – Emmanuelle PICARD, "du dossier individuel à la prosopographie en histoire de l'éducation: bilan et problèmes de méthode" Revue administrative, numéro spécial, texte de la communication à la journée d'étude organisée par les archives nationales le 24 octobre 2006, publier février 2007, pp 55-58.

(17) – ibid. p 6.

(18) – ibid.p.8

ينبغي البحث البروسوبوغرافي إذن على التحقق من الخصائص الأساسية المشتركة بين مجموعة من الأفراد الفاعلين في المجتمع عن طريق تشكيل مادة دراسية جماعية لحياتهم<sup>(19)</sup>، من منطلق إخضاع تلك المادة إلى مجموعة من الأسئلة الموحدة مثل: تاريخ الولادة، تاريخ الوفاة، عدد الزيجات، عدد الأطفال، الأصول الاجتماعية، مصادر العيش... إلخ. ولإغناء النصوص بمقاربة منهجية جديدة ونفخ الثقة فيها، شكلت الأداة المعلوماتية خير معين للباحثين من أجل تفعيل الخطوات الإجرائية لعلم البروسوبوغرافيا. فالباحث Jean-philippe GENET<sup>(20)</sup> يؤكد على أن الأداة المعلوماتية تساعد على تجميع المعطيات وتصنيفها، وتضيقها وتحليلها إحصائيا ثم إثباتها في رسوم بيانية إلى حين تأويلها<sup>(21)</sup>.

وبناء عليه تكمن غايات البروسوبوغرافيا في تتبع المعطيات المشتركة بين الأفراد من أجل فهم الكيفية التي تنتظم على أساسها العلاقات بينهم في إطار مؤسساتي، وبذلك تختلف البروسوبوغرافيا عن السيرة الذاتية (biography) وعن الأنساب (genealogy)، وأحيانا ما يتم تفكيك العينة المدروسة ذات الخصائص المشتركة إلى فئات ومجموعات فرعية أكثر أو أقل تجانسا من حيث الممارسات السلوكية والاعتقادات الشخصية<sup>(22)</sup>، خصوصا وأن حياة الفرد ذات دلالة متقاربة مع حياة الجماعة، لأنه لولا

(19) – Hélène MILLET, « Notice biographique et enquête prosopographique », Mélanges de l'école française de rom, N° 1, Vo 100, Année 1988, pp 87-111.

(20) – Jean-Philippe GANET, « L'informatique au service de la prosopographie : prosop », ibidem , pp 247-263.

(21) – Christophe Charle  
lynoz  
"pour une prosopographie  
1970 Aline lampo .compare"  
BDP4 BDP3 BDP1  
Christian müller Jacqueline Sublet  
logiciel access 2000  
/ l'institut de recherche et d'histoire des textes/ l'I.R.H.T  
: Guiseppe Gabiruli Leone Caetani

- = <http://lampo.univ-paris1.fr/wz/lamom.html>.

- Jacqueline SUBLET, « La prosopographie arabe », annels, histoire, sciences sociales, n° 5, 25<sup>ème</sup> année, 1970, pp 1236-1239.

(22) – Mohammed MEOUAK, saqâliba, eunuques et esclaves à la conquête du pouvoir : géographie et histoire des élites politiques « marginales dans l'Espagne umayyade » ed, gummeruskirjapainooy, saariJärvi, 2004, p 156.

الممارسات الفردية لما تشكلت في الأصل السلوكيات الجماعية<sup>(23)</sup>. فإلى أي حد تساهم المقاربة البروسوبوغرافية في خلق توافق مع أدب المناقب بالشكل الذي تبرز فيه القيمة التاريخية لهذا الجنس الأدبي؟ وبأية صورة تسمح المقاربة البروسوبوغرافية بتثمين الأخبار الواردة في أدب المناقب؟

### ثانياً: البروسوبوغرافيا في خدمة الأدب المنقبي: النخب الصوفية مطلب تاريخي

تعنى كتب التراجم عامة بترجمة أعلام زمن محدد وبلد معين، أو فن من الفنون، أو نحلة من النحل، أو فئة خاصة من الناس مثل الصلحاء، والعباد، والزهاد، والمتصوفة، والأولياء، والفقهاء.... إلخ. وتعد كتب التراجم "من أكثر أنواع الكتابات الأدبية ارتباطاً بالتاريخ بل هي نوع آخر من التاريخ إن لم تكن التاريخ نفسه"<sup>(24)</sup>، تضم بين متونها معلومات تاريخية ثمينة غير مقصودة في حد ذاتها، دون الخضوع لإيديولوجية معينة مكشوفة فتكون أقرب إلى التصديق من كتب الإخباريين<sup>(25)</sup>. لهذه الاعتبارات تتولد الأهمية التاريخية لكتب التراجم في "كونها لا تخلو من استطرادات تتعلق بجوانب من حياة البلاد الداخلية، وكذا علاقتها الخارجية، فنجد معلومات مهمة تتعلق بالمجتمع والعمران....، وغالباً ما نصحح بها بعض الأخطاء التي ترد في كتب الحواريات السياسية وذلك لارتباط كتب التراجم أكثر بحياة الأشخاص"<sup>(26)</sup>.

وبفضل المقاربة البروسوبوغرافية نتمكن من تحديد الأشخاص الوافدين على جهة ما، أو المستقرين بها، وإسهاماتهم الاجتماعية، والروحية والفكرية في ذلك الوسط<sup>(27)</sup>. فبأية صيغة سوف تخدم المقاربة البروسوبوغرافية الأدب المنقبي، وكيف تبرز هذه المقاربة بشكل فعال بأن ظاهرة الصلاح والولاية مطلب تاريخي عبر منهج معين ومصدر محدد؟ وإلى أي حد يمكن لعلم البروسوبوغرافيا أن يثمن أكثر وبشكل فعال

(23) – Pierre BOURDIEU, « l'illusion biographique », actes de la recherche en sciences sociales. N° 62-63. Volume 62, Année 1986. p 69.

" (24)

1. 1998 314.

" / 1139 - 1082/ (25)

51 / -1417 1996

68. (26)

: 315.

9 6 :

-81 2010

91 (27)

20 16

27 2007 1. 12



أهمية الأدب المنقبي<sup>(28)</sup> في خدمة قضايا من البحث التاريخي؟ ثم كيف يمكن قراءة النصوص المنقبية قراءة متعددة الجوانب دون الوقوع في مزالق التأويلات الذاتية؟ فكلما تقدمت مستويات قراءة الباحثين للنصوص المنقبية إلا ويستطيع الباحث إضافة معطيات جديدة<sup>(29)</sup>. فبأية صيغة يمكن الكشف عن جدوى المقاربة البروسوبوغرافية في الإفصاح عن قضايا لا تحظى بالاهتمام نتيجة أحادية الرؤيا والمنظور الذي أخضعت لهما؟.

يؤسس الأدب المنقبي لمعاني الخلق الكريم، والسلوك الحسن لدى أفراد المجتمع، وقد تكون هذه الميزة المعظمة للفرد داخل الأدب المنقبي<sup>(30)</sup>، ذات حمولة إيجابية بل وإضافة نوعية بالنسبة للعمل البروسوبوغرافي الهادف إلى تشكيل نظرة حول فئة معينة ذات خصوصيات مشتركة<sup>(31)</sup>، فتلمح بالتالي البروسوبوغرافيا الحياة العامة للمجتمع عن طريق الحياة الخاصة بالأولياء، مادام أن كل سيرة ذاتية هي ترجمة منقبية، والفرد حلقة تسمح بالولوج إلى حياة الجماعة، إذ عبر ذهنية الأفراد نصل إلى المحيط الاجتماعي لمجموع هؤلاء الأفراد في زمان ومكان ما<sup>(32)</sup>. لمعالجة خصوصيات حياة فئة اجتماعية كالأولياء والصلحاء، من منطلق قراءة الرموز التي تتضمنها النصوص المنقبية الغنية بالمعاني والدلالات السيميائية المجسدة لعدد من الممارسات الاجتماعية، تم الاعتماد على المقاربة البروسوبوغرافية بهدف قراءة النصوص المنقبية والكشف عن مادة غير مقصودة في البحث التاريخي بغية مقارنة الجوانب الخفية منها. وتشكل عملية إخضاع الترجمة المنقبية الواحدة إلى عملية الفحص عبر شبكة المؤشرات الخبرية إلى التوصل بكون بنية الترجمة في أدب المناقب تنقسم إلى ثلاثة محاور رئيسية:

- المحور الأول: مرتبط بحياة الولي الشخصية، عبر رصد: اسمه، وتحليلته، وكنيته، ولقبه، وانتمائه الجغرافي والقبلي، وولادته، ووفاته مع موضع إقباره وما خلفته وفاته في نفوس معاصريه، ووضعيته

(28) – P. Baudouin de GAIFFIER, « Mentalité de l'hagiographe médiéval d'après quelques travaux récents », *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*, Année 1972, Volume 27, Numéro 2, p. 429. <http://www.persee.fr>

" " \_ (29)

35 1989 1988 9-8

" : 17 10 " \_ (30)

.38 2005 130

(31) – Abdelmajid ZEGGAF, « entre l'histoire et la littérature : le récit hagiographique » royaume du Maroc, université Mohamed V, publications de la faculté des lettres et des sciences humaines – Rabat, série, colloque et séminaires, N° 20, histoire et linguistique texte et niveau d'interprétation cordonné et présenté par Abdelahad Sebti, 1992, p 54.

.26 \_ (32)

العائلية من حيث: عدد زيجاته وأطفاله، وحالته الصحية، وملامح الفيزيولوجية ومواصفاته الشخصية، إلى جانب مكان إقامته الدائمة، وأوقات فراغه، وموارده المالية من خلال حرفة أو وظيفة في الإمامة، أو الخطابة، أو القضاء، أو الإفتاء ثم الهبات التي يحصل عليها.... إلخ.

- المحور الثاني: مرتبط بمحيط الولي وعلاقاته الاجتماعية بأهله، وزوجه، وأبنائه وأحفاده الذين قد يورثهم صلاحه، ووالديه، وأصحابه ورفاقه، وجيرانه، ثم مع رموز السلطة الذي قد تجمعهم معهم علاقة تنافر، أو موالاة، تحرز....

- المحور الثالث: خاص بنشاطات الولي، انطلاقاً من نشأته ودراسته عبر طلب العلم، مروراً برحلته التي تختلف مقاصدها بين حجية، وسفارية، وسياحية، وتجارية وعلمية، مع ذكر شيوخه في العلم والصلاح، والتعريف بهم، وعرض مأخذه عليهم، وإجازاتهم له، مع الحديث عن أتباعه وتلامذته المتصلين به مباشرة أو إجازة، مع ذكر مؤلفاته وما حققته من حوارات فكرية خلال عهده أو بعد عصره، مع جرد بعض أجوبته، وكتابات وأشعاره. وتسمح هذه الأبعاد مجتمعة من تحديد مدى إشعاع شخصية الولي، على المستوى المحلي والإقليمي والمغربي أو أكبر من ذلك.

يسمح تنوع المعطيات المشتركة بين الأولياء بتشكيل أفكار محددة تجاه قضية معينة، مادامت غاية النصوص المنقبية هو التعريف بفئة اجتماعية معينة ذات سمات مشتركة، فتفصح عن مولد الأولياء ونشأتهم ومراحل طلبهم للعلم، وشيوخهم وتلامذتهم، وأحوالهم التعبدية والكرامية، وإسهاماتهم في التدريس والتأليف، مع ذكر وفياتهم، وتأثيرهم على المجتمع حتى بعد مماتهم، ويحكم طبيعة المعطيات التركيبية التي تقدمها كتب التراجم ومستويات المعرفة الإخبارية بشأن حياة الأولياء التي يرى بعض الباحثين أنها ذات صور نمطية بسبب طغيان "الوظيفة التربوية"<sup>(33)</sup> على أخبار أدب المناقب، لذلك فإننا في أمس الحاجة إلى إعادة توظيف تلك المادة النمطية لنفهم أكثر منطق الكتابة المنقبية. ويرى الباحث محمد مفتاح<sup>(34)</sup> في هذا الصدد، أنه بالإمكان أن تكون الترجمة ذات وقائع حرفية، لكن يجب رغم ذلك البحث عن مضمراتها، "أي استعمال معطيات الواقع لبناء الممكن والمراد والمبتغى". ورغم كون الخطاب المنقبي ذا لهجة تبجيلية تدافع وتضخم من الحدث، فإن الأوصاف التي ترتبط بكل ولي، إلى جانب

(33) \_ " : 15 . 22 1998

(34) \_ . 31-30

آليات العمل البروسوبوغرافي، ستمكن من تجميع الخلاصات الفكرية والسلوكية للأولياء في قالب واحد متكامل في الزمان والمكان<sup>(35)</sup>.

إن التراجع التي يفصح عنها الخطاب المنقبي تعد مستندات لتوثيق التاريخ الاجتماعي<sup>(36)</sup> ولم لا التاريخ السوسيولوجي- الأنثروبولوجي للأولياء في تفاعلهم مع محيطهم الجغرافي الذي ينال اهتماما خاصا وصدى فعالا من خلال إقامة هؤلاء الأولياء به، فالتراجع على اختلاف صيغها، وشكلها من حيث الطول أو القصر، وفي توجهاتها وأهدافها تظل ذات حضور متميز ومهم<sup>(37)</sup>، لأن المنهج البروسوبوغرافي يضمن حضور تمثيلية كل ترجمة كيفما كانت، مما يجعل الأدب المنقبي من أكثر الإنتاجات الفكرية انسجاما مع المقاربة البروسوبوغرافية التي تضمن حضور كل ترجمة على درجة من المساواة مع نظيراتها. هذا ويتيح المنهج إمكانية رصد حياة الأولياء داخل النص المنقبي على أنها سلسلة من التنقلات والمحطات داخل النسيج الجغرافي سواء الحضري منه أو القروي. فمثلا كتاب "المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد" لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت 603هـ أو 604هـ/1207م)<sup>(38)</sup> وثق لمعطيات ثمينة تخص الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لأولياء مدينة فاس خلال القرن 6هـ/12م. والكتاب ليس مصدرا لتاريخ مدينة فاس فحسب، بل "يطفح بـ (...) معلومات دفيئة وفريدة في نوعها في كثير من الأحيان حول الحياة الدينية للمدينة من خلال المعطيات المكثفة حول عبادها وسلوكهم وتصوراتهم ومواقفهم وحياتهم اليومية... إلخ"<sup>(39)</sup>، والكتاب يتموقع بين نوعين من الكتابة، كتابة منقبية وكتابة حكاية سردية، وقد مكن هذا التقاطع بين الكتابة المنقبية للمستفاد والرواية الشفوية من "حضور معلومات تاريخية وعناصر معطيات أنثروبولوجية بالغة الأهمية جعلت من الكتاب وثيقة تعبر عن الواقع الذهني واليومي المعيش، أكثر منها تعبيرا عن الواقع السياسي الحداثي"<sup>(40)</sup>، وهذا ما يعكس بل ويبرهن من منظور آخر أن المقاربة

(35) - PELLAT (CH), « Manakib, in Encyclopédie de l'islam, Tome VI, MAHK-MID, sous le patronage de l'union Académique internationale, Ed, Brill Leiden, Pays Bas, 1991, pp, 333-341.

(36) - 41.

(37) - 19-18.

(38) - 1.

البروسوبوغرافية ليست بمقارنة خاصة بالنخب السياسية والاقتصادية التي تتوفر بشأنها المادة الخبرية بل ترتبط أيضا بالفئات الهامشية في المجتمع.

إن الإقرار باللجوء إلى المقارنة البروسوبوغرافية أمر يكشف عن حياة فئة اجتماعية ظلت لوقت طويل تدرس من زاوية سياسة تكشف فقط عن علاقتها مع السلطة الزمنية دون محاولة رصد تفاعل هذه الفئة في حد ذاتها مع محيطها الأسروي أولا، ثم مع محيطها الخارجي ثانيا، مروراً بضبط علاقة الأولياء مع بعضهم البعض. فما فائدة التراكمات التي تحققها المقارنة البروسوبوغرافية عند قراءتها لأدب المناقب؟ وما جدية القضايا التي تفرزها هذه المقارنة من أجل إغناء البحث في موضوع النخب الصوفية؟

تتجلى الفائدة المتوخاة من الأدب المنقبي تجاه المنهج البروسوبوغرافي عبر جدية القضايا التاريخية التي يطرحها، أولاً: في الإفصاح عن فوائد غير مقصودة قد ترافق معطيات غير قابلة للتصديق، حتى وإن كانت تلك الحكايات والصيغ مجرد إعادة إنتاج لنماذج متداولة بصيغة "نمطية"، وثانياً: في التعبير عن كون المنهج البروسوبوغرافي في ارتباط بالمادة المنقبية يبرز انتقاء المعطيات المتشابهة مع بعضها البعض وصياغتها في قضية واحدة، كانت في السابق غير بارزة المعالم بحكم طابع التنافر الذي كان يطبعها، فننتقل من أحداث وأخبار متناثرة إلى قضايا ذات حمولة تاريخية. إن محاولة تكميم تلك التعريفات أو الموضوعات في الأدب المنقبي هي غاية المقارنة البروسوبوغرافية التي تصبح آنذاك مثقلة بالمعاني بالنسبة للمؤرخ، الذي يستطيع تبين ظواهر عديدة لم يكن ليقدّم على تناولها بالوصف، والتحليل، والتركيب والتأويل لولا تغيير نظريته المنهجية للأدب المنقبي.

إن الإقدام على دراسة القضايا التاريخية بمقارنة بروسوبوغرافية أمر ليس سهلاً وإنما بحاجة إلى صبر وجهد، وقدرة على ضبط المعلومات التي تتسم بطابع الكثرة، في ظل السهر على البحث عن علاقات الترابط بين تلك المعلومات زمانياً ومكانياً. فما هي إذا آفاق الرهان على علم البروسوبوغرافيا في خدمة أدب المناقب؟

يسمح علم البروسوبوغرافيا بإبراز جميع المعايير والمسارات التي تم إخضاع الفئة المدروسة إليها، بصيغة إحصائية على الأغلب، لأن أجراً المقارنة تسمح بخلق مستويات تفسير في الحاضر والمستقبل من خلال:

❖ إبراز الثغرات والعيوب التي تنتاب العمل،

❖ ملامسة مواقف الأفراد - المنتمين إلى نفس الجماعة - بالنسبة لبعضهم البعض،  
❖ طرح منافذ عدة من أجل تفسير المؤشرات سواء على مستوى العلاقات الكبرى أو الصغرى، لتسليط الضوء على دينامية الظواهر التي تحركها وتديرها المجموعة قيد الدراسة. وبذلك ينتقل البحث من حياة الفرد الواردة بشكل منعزل، إلى تاريخ يحمل

دلالتة من منطلق الجماعة الكبرى المتجانسة "grandes individualités"<sup>(41)</sup>. التي يتم التساؤل بخصوصها عن طبيعة وهيئة وحدود التغيرات الاجتماعية التي قد تنتابها. وإذا كانت الكتابة المنقبية تمنح حضورا تفضيليا للفضاء المجالي، فإنها بالمقابل تقدم على سحق الزمن الذي لا يبرز إلا بشكل عرضي أو استثنائي يغلب عليه التقويم وقلة الدقة<sup>(42)</sup>.

تتيح المقاربة إمكانية تغير طبيعة الأسئلة المطروحة على القضية المعالجة، وأيضا إضفاء قيمة نوعية على النتائج المحصل عليها، لأن منهجية أجرة المقاربة تحمل بين طياتها صعوبات العمل، فمن جهة، هناك ضعف للمعلومات حول الأفراد المنتمين إلى جماعة معينة، فأي خطأ في الترتيب والتأويل لتلك المعلومات، سيؤدي حتما إلى الشك في النتائج المحصل عليها، ومن جهة أخرى تعد نتائج الفئة المدروسة غير واضحة المعالم لأن هذه الفئة أصلا ذات طابع تمثيلي. ورغم ذلك يؤمن الباحثون<sup>(43)</sup> أن معارفنا حول الفئة المدروسة ناتجة من تعدد المصادر عنها<sup>(44)</sup> métasources، حيث تتنامى القيمة التوثيقية للتراجع بتنامي قوة المستندات التي تبرهن عليها، ومن تعدد المصادر المسماة بها سواء المكتوبة أو المشاهدة أو المعيشة، فتكتسب قيمتها التوثيقية<sup>(45)</sup>، لذلك يجب الاحتياط بشأن هذه المسألة لأن الأمر في النهاية يعود إلى تراجع توثق انتماء المترجم إليه في بلده، وإن تكن الترجمة "أداة توثيقية" تحمل معالم البلد والانتماء إليه، سواء أنتجه عالم من البلد نفسه أو عالم من خارج هذا البلد وبعيد عنه، وسواء تعلق الأمر بعمل اختص ببلد معين مثل مدينة فاس أو غيرها من مدن الغرب الإسلامي.

على الباحث أن يدرك جيدا أن فائدة علم البروسوبوغرافيا تكمن في حسن إعادة قراءة المصادر برؤية جديدة تتجنب الحكم الملائم لها بندرة معلوماتها الخبرية إلى إعطاء الأهمية لكل حدث أو معطى كيفما كان، وإن برز للباحث في الوهلة الأولى أنه تافه القيمة فعليه وضعه ضمن نسيج العلاقات المتناثرة، ليصبح بدون شك ذا فائدة. وهنا تكمن أهمية البروسوبوغرافيا من خلال إعادة الاعتبار للخبر أو أي مؤشر كيفما كان، لأن تراكم المعطيات المنفردة حول الفئة المدروسة يسمح لاحقا وعبر مسار قضايا البحث من تتبع التفاعلات الممكنة فيما بينها.

<sup>(41)</sup> -Mohammed MEOUAK, Saqâliba,... , op. cit, p 157.

<sup>(42)</sup> - : 16-15 1993

<sup>(43)</sup> - Jean MAURIN, « la prosopographie romaine, pertuis et profits », annales histoire sciences sociales, n° 5-6, 37ème année, 1982, p 824..

<sup>(44)</sup> - Claire LEMERCIER et Emmanuelle PICARD, op. cit, p 6.

<sup>(45)</sup> - " : "

قد تكون البروسوبوغرافيا وسيلة غير مكتملة المعالم بعد، لكن تظل واعدة جدا ولم تستغل بعد بطريقة كافية كمنهج في البحث التاريخي. إن العمل البروسوبوغرافي صار حاجة ملحة وليس أمرا عابرا، يعين على الفهم، بل علم قائم بذاته، وميدان جديد لاختبار قدرة المؤرخ على توظيف نوع محدد من المصادر التاريخية في بحثه الأكاديمي. عموما "البروسوبوغرافيا مقارنة من بين مقاربات أخرى قد تفيد في نوع من البحوث وقد تبقى قليلة الجدوى في بحوث أخرى"<sup>(46)</sup>، ولكنها مقارنة صارت تحظى بحضور بارز ولم تعد مجرد علم مساعد بل هي منهج مستقل في الكتابة التاريخية الجديدة ومطلب ملح في البحث التاريخي. يتناسب المنهج البروسوبوغرافي مع وفرة التصنيف في كتب التراجم، فإن لم يحدث المنهج ثورة جذرية مطلوبة فهو على الأقل يعدل بعض الأحكام، أو يقيّد تعميماتها، أو يفتح آفاقا جديدة بما يثيره من تساؤلات معرفية، وإن لم تمنحنا المقارنة نتائج حاسمة فهي على الأقل ستقدم فرضيات جديدة تعيد النظر فيما سبق بحثه بأساليب تقليدية.